وليد وبـــاح

(خنّاس) المخيم

تنسرب الهوام الى سيقاننا بخفـه كضباب صيفي ، لتمعن فـي امتصاص الدم والتنقل ما بيـن الفخذين ، نهرش حتى تتهرأ جلودنا .. تعاف خيمتنا الاجساد المتلاصقة فنهرب الى العراء .. لكن كل نجـوم السماء تتحول الى دقائق غير منظورة تعشش تحت جلودنا لتدق الارض باقدامنـا وكاننـا في طوابير عسكرية تعمل على تنظيم الخطوات ، نعود ثانيـة حيث تلفح الانفاس وجوهنا .. فينسرب الينا صوت (الخناس) بعيدا كانمـا هو في جحر ردمت فوهته .. ينادي بصوته المنفوم علـى مسحوقه القاتل لكل انواع الحشرات ... نوزع انفسنا في المخيم بحثا عن (الخناس) كي لا ينفد منه المسحوق قبل وصوله الى خيمتنا .

هو ذا جلد .. تتمايل خطواته منسلا من خيمة (ام فهيمه) يلفه الظلام فلا ترى غير كيسه الورقي الابيض في يمناه ورزمة من الاوراق في يده الاخرى ، يلف بهـا المسحوق الذي يشبه طحين (وكالةالغوث) لقاء قرش واحـد ..

ـ ما فصتك الليلة يا خناس ؟

ـ لن احدثكم بشيء هذه الليلة ، فزوجتي يغالبها النعاس وقـد عهدت ان اعود اليها قبل ان يغزوهـا النوم ..

يضحك ثم يتابع :

ـ عندما تكبرون سوف تعرفون قيمة ليلة الجمعة ..

.. نعود ادراجنا نحمل احزاننا الى الخيمة ، ونطن في براءة امام ابي ان الخناس يرفض ان يقص علينـا شيئـا ليلة الجمعة ... يضحك ثم يعبث بغرة امي فتضرب يده بتثاقل :

ـ يا رجل عيب .. اولادك اباليس .

.. نعفر رؤوسنا ووجوهنا بالمسحوق ويضحك كل منـا علـى الاخر . فعلق امي :

ـ اكلم كالقرود التي تعفر نفسها بالرمـاد .

.. في البدء كان المفعول اكيدا .. نعد البراغيث المنطرحة فـوق الارض عند الصبح وندعـو للخناس بطول العمر وربح التجارة .. لكننا بعد اشهـر صرنـا نشتمه علانية ، ذلك ان البراغيث اخذت تكبـر وتزداد لسعتهـا وجعـا كلمـا اكلت من مسحوقه .. وازداد المطالبون امام خيمـه الخناس كي يعيد اليهم قروشهم ، ومع مرور الايام كسدت تجارته ولم نعـد نسمع صوته يمجد المسحوق وينفني بمفعوله .

★★★

انتشر العساكر في المخيم .. سألت أبي فقال هم الفرسان الذين يطعمون خيولهم لوزا وسكرا .. رأيت الناس يدخلون الى خيامهـــم مسرعين .. نفذ صهيل الخيل الى رأسي فتبعت العساكر .

« في الصف الاول قال لنـا المدرس ان حاتما الطائي ضحى بفرسه عند قدوم ضيوفه وكانت كل الشياه في المرعى .. كيف يضحي مجنـون بفرس تكتنز الينهـا بالشحم وترفع ذيلهـا الى مستوى رأسهـا وتسير مجانبة كلمـا وكزها الفارس ..»

.. توقفوا عند خيمة الخناس .. خرجت زوجته فوشى وجههـا برعب حقيقي وتحول الى لون شمعي دون دم او حياة .. تخاذلـت ركبتاها فاستندت الى عامود الخيمة .. الرجل قائدهم ووكزها بعصـاه على صدرهـا فابتعدت مذعورة .. ولج مسرعا فسمعت صراخا حادا وابتهالا محترقا يخرجه الخناس من انفه .

.. بعد دقائق خرج الخناس والدماء تعفر وجهه .. ربطوا وسطه بحبل شدوه الى فرس وسار خلفهم ينوح ويبتهل .. لحقته زوجتـه واولاده فنزل اخـر العساكر واوسعهم ضربا بسوطه حتى ادخلهم الخيمة.

.. في المخيم ، قيل قد سجـن الخناس لانه يبيع ال د.د.ت. مخلوطا بالطحين .. وقيل بانه يجتمع الى شباب المخيم في المغيى يحدثهم كل ليلة عن قريته وبيارته والارض الحمراء التي تخلو من البـراغيث والحشرات وتعطي بالقدر الذي ينغرس فيها المعول الى الاعماق ..وقيل ايضا ان الخناس يدعي ان (الفرسان) سرقوا بارودته وستة امشاط من الفشك عند الحدود ووعدوه بان تعاد لـه عندما يرجع الى قريته .. قيل الكثير ، لكني استرقت السمع يومـا قرب خيمـة مختار المخيم فعلمت ان الخناس متهم باختراع الاقاصيص التي تخرب عقول الاطفال وتدعوهم للتمثل بعبدالقادر الحسيني وعزالدين القسام وغيرهما ..

ارقت كثيرا في تلك الليلة .. وتساءلت لماذا يسجنون الخناس وكل كتبنا المدرسية تحكي قصص خالد بن الوليد وصلاح الدينالايوبي، لماذا لا يحبسون كل الذين يكتبون قصص البطولة ويحشون بها عقولنـا

.. وتوصلت اخيرا الى ان اولئك ربما كانوا رفاقا للخناس في سجنه .. من يدري ..

عند الصبح حدثت ابي عما سمعته في خيمة المختار فوبخني وصفعني وحلف اغلظ الايمان ان يطلق امي اذا ما فتحت فمي بكلمة مما سمعت ..

.. عولت على ان لا افوه بكلمة .. ورغم افتقاد الخناس واقاصيصه وسريان امر حبسه بين الاولاد . وتضارب الروايات ، فقد عقدت العزم ان لا ارى امي مطلقة مثل (فرحه) التي كانت ترسل اولادها الى الجنود العراقيين الذين يعسكرون غير بعيد عن المخيم يحملون الادعية كي يعبئوها بقليل من (التمن) وشيء من الرق وبعض فتات الخبز .

وكثيرا ما حاول لساني ان ينزلق فاتصور نفسي اقف في برد الشتاء وتحت المطر امام خيام الجنود انتظر فراغهم من الطعام كي اعبيء وعائي بفضلاتهم .. لكني في بعض الاحيان كنت احن الى قطعة خبز من (الفينو) الابيض الذي يحضره اولاد فرحه من عند العساكر ويجودون عليّ بشيء منه .. اتذوقه فتتسرب فتاته الى معدتي بيسر ونعومة فاحلف ان ابوح بالسر الكبير كي يطلقها وينتهي امر حشو خبز الشعير في معدتي قسرا .

ذات يوم رأيت زوجة الخناس تقود عربة صغيرة قد وضعت فوقها طفليها ، وتمد يدها للمارة طالبة ان تطعم الاولاد ، وتكررت رؤيتي لها فبت اسير وراءها كلما رأيتها للتمتع بما تحويه العربة من الوان الاطعمة قرب الطفلين فيتحلب ريقي واشتم امي في سري لانها لا تعمل مثل زوجة الخناس .. كانت العربة لا تخلو من بعض ارغفة الخبز وحبات من الطماطم وصحن مملوء بالارز والوان من (الطبخ) وبعض قطع الحلوى .

.. مرة عولت ان امد يدي لاسرق بعض ما تحويه العربة ، لكني بعد لاي فكرت ان ابوح لها بالسر فانال الطعام دون عناء..

عندما ولجت عربتها الخيمة كنت كظلها واسرعت في رش الكلمات متلاحقة عن سر حبس الخناس وعيناي مركزتان حول قطعة حلوى تقطر عسلا .. ربتت على كتفي بحنان واعلمتني انها تعرف ذلك فخذلت.. قالت انها زارته بالامس في سجنه فاخبرها عن التهمة .. جمعت شجاعتي واعلنت لها انني بحت لها بالسر كي آكل من بعض ما تجمعه فضحكت حتى كادت تستلقي على ظهرها وطلبت اليّ ان اختار ما اريده .. ومنذ ذلك اليوم ولاشهر طويلة .. كان طعامي كمشاء الملوك اصنافا والوانا لا يحصيها احد .

★ ★ ★

دامعة ابدا .. ليس بفعل الحزن لكن ذرات التراب اتخذت من عينيها عشا تتكيء اليه ايام الحصاد فتورمتا وغدت تقطرهما بالتماي الخالي من السكر عملا بوصفه جارتنا (ام فهيمه) .

تخب في وحل المخيم تحلم بحذاء يقيها شر صقيع الفجر اذ تحمل جرتها وتتجه نحو عين الماء كي تملأها .

.. وادريس الذي يؤم الناس في الجامع ويغسل الموتى ويتلو آيات من القرآن على قبورهم بحلم أن يموت الناس جميعا كي يطعم اولاده، يقطع عليها طريق العودة حاملا هراوته يمازحها ويضحك عن فم ادرد يصيح بها ان تفرغ الجرة في برميل الجامع كي يتوضأ الناس فتحلف ان ارواء عطش الاولاد خير من كل صلاة .. لكنه يحاذيها في السير يتحدث عن الجنة والنار والثواب فتلعنه وتتجه نحو البرميل وتفرغ جرتها ثم تعود ثانية الى العين تملأها .

طلب اليها يوما ان تصلي فافرغت جرتها فوق الوحل وضمتها الى صدرها ولحقته راكضة امام تندر الناس فلم يعد ثانية لمثلها ..

عندما كانت نذر المطر تطل تهدأ مثل قطة قرب مدفأة .. كلما تحدث اليها ابي هزت رأسها موافقة دون اعتراض .. لكنها ايام الحصاد تقف امامه بهامتها التي تشبه نخلة عتيقة وتضع كفيها على خصرها تلعنه وتلعن اليوم الذي عقد فيه قرانهما .. وكان يدرك ذلك فيهدأ في الصيف كهدوئها في الشتاء ، لان غضبتها تعني ان تقول له في كل يوم (فتش عن عمل) كما تعني ان لا تذهب الى الحقول تلتقط السنابل خلف الحصادين فيحرم نفسه من قروش يحولها الى تبغ ينفثه في الهواء ويحلم .

★ ★ ★

ـ يا خيبتي يا بنات .. زوجة الخناس تشحد .

انطلقت صيحتها في (العين) فاحدثت دويا بين النساء ، وتزعمت خمس منهن تقودهن الى الجامع كي يطلب ادريس من المصلين في يوم الجمعة ان يكفوا المرأة ذل السؤال..لكنه نظر من فوق لحيته الكثة غاضبا وقال انهن يسعين لوضعه مكان الخناس حتى يعفن اولاده .

حاولت افهامه وتذكيره بانه يدعو الناس لكي يكونوا اسرة واحدة اذا ما اصاب احد افرادها وصب تداعي الجميع لنصرته فقال لها انه يقرأ ذلك في الكتب القديمة .. ولكن تلك الكتب لم تات على ذكر السجون والفرسان .. وعدن الى جرارهن لكن ادريس علم انهن يخفين امرا فعول ان يخبر المختار لينال الحظوة عنده ..

عند المساء تجمعن في خيمتنا .. ثرثرن كثيرا وابدت كل منهن اقتراحها لكن الساعات مضت والزعيق والصراخ يطغي على الكلمات .

عاد ابي من المقهى فوجد النقاش على اشده فحلف يمينا ان يطلقها عند الصبح ليستريح من (زعرنتها) لكنها وقفت امامه بتحد وقالت (حتى الكلاب في هذا الزمن تعيش ، ولسنا احسن حالا من الكلاب) .

سمع صوت المختار قرب الخيمة فارتعد .. خرج اليه باشا يخفي عن وجهه ظل الكآبة .. قال المختار :

ـ انت تعرف ان الحكومة لا ترضى عما يجري .. اذا ما علموا فسيطوقون المخيم غدا ويعلنون منع التجول فنخرج في الخيام .

ـ اقسم انني لا اعلم عن هذا الامر شيئا .. وقد جئت الان من المقهى فوجدتهن يثرثرن على ما تسمع .

ـ انت تعرف انني بذلت كل جهودي للعفو عن الخناس .. لكنهم في النهاية قالوا لي نريد بديلا له .. وانا لا اظلم احدا .

خرجت النسوة فراين المختار وابي .. وقفت واجما للحظات .. لكنها شقت طريقها رافعة راسها فتبعتها .

عند المقهى نظمن صفوفهن وكانهن في معركة .. المذياع يصدح باغنية (على النجدة هيا يا رجال) .

رفعت امي عصا نسلتها من تحت ثوبها وهجمن على المقهى .. تطايرت بعض فردات الاحذية في الهواء .. صرخ بعض الشباب .. رات احداهن زوجها في المقهى فوجدتها فرصة لا تعوض فهوت على ام رأسه (بالقبقاب) فانفجر دمه يغطي وجهه .. وفي خلال دقائق كان رواد المقهى يركنون مذعورين الى الزاوية .

ـ زوجة الخناس تشحد وانتم تجلسون هنا .. تفو عليكم .

قالت حاملة القبقاب وهي تجفف دم زوجها بحنان ..

ـ غدا اذا ما حبست سوف اشحد يا خايب ..هل فكرت في هذا ؟

تجرأ احد الشباب وسأل :

ـ ولكن .. ماذا تردن منا ان نفعل ؟

ضحكت امي واتجهت اليه فانكمش على نفسه ..

ـ ماذا تفعل يا (مدلع) لو ارسل كل واحد منكم رغيفا في كل يوم الى زوجة الخناس ما شحدت ..

تفو عليكم .. جميعا ..

قالت بعد ان خرجت من المقهى بصوت عال كي يسمعها الرواد .. غدا اذا ما رأيت زوجة الخناس تشحد سوف نجعل ليالي (القهوة) سوداء ..

تفرقن كل الى جهة .. كانت الساعة تقارب منتصف الليل .. وعدت متعلقا باذيالها نخب في وحل الطريق .. عندما وصلت الى الخيمة سمعت صوت المختار يضاحك ابي ويمازحه .. دخلت واشاحت بوجهها فقال المختار :

ـ الا تسلمين .. ذكرتني (بالختياره) يوم كانت تخبيء الثوار في بيتنا ويأتي الانجليز للبحث عنهم فتبصق في وجوههم وتمنعهم من الدخـــول .

قالت منفعلـة ...

ـ امك .. لا يمكن للزهرة ان تخلف شوكه ، ثم ان هناك مثلا اؤمن به كمـا اؤمن بسنابل القمح ..

(تكشف الكذبة من ضحكاتها)

ضحك المختار ثم استأذن بالرحيل .. وفي تلك الليلة صنع ابـي لهـا جرحا في وجهها ينزف كلمـا قالت آه ....

* * *

ـ سلامة ابو الريش

رجل يهمه ان ترضى الحكومة عنه .. يعيش امام عربة الخضار وخلفه الخيمة تئن من الجوع والوجع لا خطر منه يا شاويش ..

ـ كم يدفـع ؟

ـ خمسة قروش عند كل مساء

ـ حسن .. غيـره

ـ ايليـا عبد الاحـد

تعرفه .. يعمل في جمع القمامة .. يتقاضى ستة دنانير شهريا من وكالة الغوث .. قلت له زد خشية ان تتهم بما اتهم به الخناس .

ـ كم يدفـع ؟

ـ خمسين قرشا في الشهر

ـ هذا حسن .. دعنا من البقية واجمع النقود واعطني حصتي .. لكـن مهلا .. لم تات على ذكر (سعده)

ضحك المختار طويـلا ..

ـ ليلة الامس افرغت جيوب زوجها .

ـ قد خدمتنا فيما صنعت .. سيقل عدد رواد المقهى ويخفـت الهمس .. ولكن .. كم وجدت في جيبه ؟

ـ حلف لي انه لا يملـك سوى عشرين قرشا .. لكني فتشت جيوبه فعثرت على دينار اخر فظفرت به.

ابتسم الشاويش ومد يده الى المختار فانسابت القروش الـى راحته .. كنت اقف الى جوار خيمة المخفر .. دسست رأسي مـن زاويتهـا وسمعت كل مـا دار بين المختار والشاويش .. لكن السعال انتابني فجأة فذعرا وخرجا من الخيمة مسرعين بينمـا اطلقت ساقي للريح .. اخر كلمـة قذفهـا المختار (انه احد اولادهـا .. ابـن سعـده واللـه)

.. عند الصبح قال لي ان الحبل يقترب من عنقه .. وانه سيشتري لـي صندوقا لطلاء الاحذيـة كي اغوص في شوارع المدينة اقبل احذية الناس قبل مسحها كي لا اعود (لشيطنتي) والتجسس لحساب امي.. فرحت في سري لان صندوق الطلاء سـوف يخلصني من صفعـات المعرس .. ثم اعلنت لـه ذلك فركلني وفرك اذني وحلف بالسموات اني ابن حرام .. وتحسست جلدي الذي صنعت منه العصا اخاديد ترتـع فيهـا البراغيث فلا اشعر بلسعاتها .

★ ★ ★

ـ الخناس اقبل يا اولاد .

كنا نلعب الكرة .. وبصوت واحد صرخنا ..

ـ افرجوا عن الخناس .. عادت ايام الحكايات والقصص .

وانطلقنا كفراخ مذعورة نخترق الازقة نتحاشى التعثر بحبال الخيام كي نرى وجه الخناس .. لكنـا بعـد لاي نظمنـا مظاهرة صغيرة اطلقت شعارات ترحيبيـة .. تعمدنا الوقوف امام خيمة المختار وصراخنا يمتد حتى المقهى .. خرج المختار من خيمته :

ـ اين هو الخناس ؟

ـ قرب المقهـى .

لملـم المختار عباءته على كتفه وانطلق يركض نحو المقهى .. وعلى بعـد رأيناه يحتضن الخناس ويقبله ويشده من يده حالفـا بالطلاق ان يزوره قبل ان يذهب الى خيمته .. لكن الخناس كان يتمنع .

.. سار نحـو خيمته تتقدمه مظاهرة الصبية .. تبرع احدنـا باخبار زوجته قبل ان يصل كي تعطيه (البشارة) .. جاءت على عجل حاسرة الرأس حافية والقت نفسهـا بيـن ذراعيه تنشج .. وخلفهـا وقفت انظر الى وجه الخناس الذي رمى برأسه على كتفهـا وقطـرات الدمع تنساب من عينيه ، لم يكـن الخناس الذي عرفته .. عظام وجهه ناتئة كأنمـا قد بعث من القبر لتوه .. وقرب عينه اليمنى هالة سوداء كقطعـة من اللحم المحترق .. اتكأ على كتف زوجته وسار متمهلا ..لاحظت انه يسير مجانبة فتذكرت الخيول الاصيلة وحاتم الطائي والفرسـان والعسكر والشهور الخمسة التي اكل القبـــو فيهـا من جلده .. وولجت الخيمة معهمـا فقبل الاولاد واحتضنهم .. اخذ يبكي ورمـى بجسده النحيل فوق حشية من الخيش .. وفي الخارج كانت اصوات الصبيـة تطلق كلمـات الترحيب بالخناس .

ـ سمعت انك تشحذين .. قالها لـي الشاويش عنـدما فـك قيـودي .

ـ فشر .. الفضل لسعده وشباب المخيم .

حانت منه التفاتة الى زاويـة الخيمة .. رأى علبه السردينـة مكدسة والخبز يرسل بخاره الحار الى اجواء الخيمة .. بكـى وفـح بكلمـات متقطعـة .

* * *

وزع المختار بعض الاوراق مهروها ببصمـات اصابعهم .. كـان المساء قد نشر ظلاله فوق المخيم .. ومع هبوب نسمات المساء الطريـة تعالت الاصوات من جوف الخيام كمجموعة اعراس في وقت واحـد في مكـان واحد .. حاولت استراق السمع لكني لـم افهم شيئا .. بعضهم كمن مسه الجنون فغدا يصرخ في وجه زوجته واطفاله .. ابي فتح قرب عينيهـا بعض الشروخ الدائريـة كثقوب الشبابه .

ساقوهم الى المخفر .. ميزت من خلال الجمـع ابي والخنـاس (وخماسية نسوة المقهى) وعندمـا خرجوا بعد ساعات جمعهم المختار في ساحـة المخفر والقى فيهم خطبة عصماء عن الحكومة والمخيم والامن ومنع التجول ، ختمها بالطلب الى المجتمعيـن ان لا يغادروا خيامهم من مغيب الشمس حتى مطلعها ، وان يثبتوا وجودهم في المخفر يوميـا ثلاث مـرات .

عندما تفرقوا تبعت الخناس الى بيته ، كانت زوجته تقف غير بعيد ، وعندمـا رآها قال لهـا اني احمل في جعبتي لاطفال المخيـم قصصا تفنيهم عن جداتهم سنوات طويلة .. وضعت يدهـا على صدرها وقالت (يا خيبتي) .. لكنه ربت على كتفهـا بحنان واشار الي .. خلل شعر رأسي باصابعه ،واتسعـت ابتسامته حتى انفردت على كل الخيـــام .

طرابلس ـ ليبيا